خطبة صلاة الجمعة 18/ 3/ 2022 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(بر الوالدين عند النبي ﷺ وكيف نتحلى به)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: 21].

وقال سبحانه مخاطباً نبيه محمداً ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 4].

أخرج الإمام الترمذي عن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ مِنْ أَحَبِّكم إِلَيَّ، وَأَقْرَبِكُمْ مِني مَجْلِساً يَوْمَ القِيَامَةِ: أَحَاسِنَكُم أخلاقاً**».

وأخرج الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول اللهِ ﷺ: «**إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ**» وفي رواية البزار «**مكارم الأخلاق**».

هذه الخطبة الرابعة والعشرون في سلسلة من الخطب تناسب الزمان والاحتياج عنوانها: (أخلاق النبي ﷺ، وكيف نتحلّى بها).

وعنوان خطبة اليوم:

بر الوالدين عند النبي ﷺ وكيف نتحلى به

أيها الإخوة:

البر كلمة جامع لكل خير، أصلها الصدق والطاعة والتوسع فيهما.

فالكلمة الطيبة بر، والنظرة الحانية بر، والنفقة الكافية بر، والخدمة الدائمة بر، والدعوة الصادقة بر، والزيارة المتكررة بر، والطاعة بالمعروف بر.

إذا كان حديث اليوم عن بر الوالدين عند النبي ﷺ وكيف نتحلى به، فإليكم هذه المواقف من السنة المطهرة.

1- جاء في كتب السيرة: ماتت السيدة آمنة أمُّ رسول الله ﷺ وهو ابن ست سنين، كان موتها بالأبواء وهي راجعة به ﷺ من المدينة من زيارة أخوال جده عبد المطلب، بعد أن مكثت عندهم شهراً ومرضت في الطريق ومعها أم أيمن بركة الحبشية التي ورثها ﷺ من أبيه عبد الله، فحضنته وجاءت به إلى جده عبد المطلب.

لما مر النبي ﷺ بالأبواء في عمرة الحديبية قال: إنّ الله أذنَ لمحمدٍ في زيارة قبر أمه، فأتاه وأصلحه، وبكى عنده، وبكى المسلمون لبكائه ﷺ وقيل له في ذلك، فقال: أدركتني رحمتُها فبكيت.

إنها رقة قلبه ﷺ على أمه وهي صورة من صور بر الوالدين عنده ﷺ.

2- أخرج أصحاب الكتب الستة عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فاستأذنه في الجهاد، فقال: «**أحي والداك؟**» قال: نعم، قال: «**ففيهما فجاهد**».

وفي رواية لمسلم قال: أقبل رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: أبايعك على الهجرة والجهاد، أبتغي الأجر من الله، قال: «**فهل من والديك أحد حي؟**» قال: نعم، بل كلاهما حي، قال: «**فتبتغي الأجر من الله؟**» قال: نعم! قال: «**فارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما**».

وفي رواية أبي داود والنسائي قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ، فقال: جئت أبايعك على الهجرة، وتركت أبوي يبكيان، قال: «**فارجع إليهما، فأضحكهما كما أبكيتهما**».

إنها صورة من صورة تربية النبي ﷺ أتباعه على بر الوالدين.

3- وأخرج أبو داود عن عمر بن السائب مرسلا: (أن رسول الله ﷺ كان جالسا يوماً، فأقبل أبوه من الرضاعة، فوضع له بعض ثوبه، فقعد عليه، ثم أقبلت أمه فوضع لها شق ثوبه من جانبه الآخر فجلست عليه ثم أقبل أخوه من الرضاعة، فقام ﷺ فأجلسه بين يديه) وكان يبعث من المدينة إلى مكة إلى ثويبة مولاة أبي لهب مرضعتِه بصلة وكسوة فَلَمَّا مَاتَتْ سَأَلَ: مَنْ بَقِيَ مِنْ قَرَابَتِهَا فقيل لا أحد.

إنه أدب النبي ﷺ مع والديه من الرضاع.

والحاصل أنّ بر الوالدين خُلُقُ النبي ﷺ، وهو معروف به، والمتوقع أن يكون خلقَك، وأن تكون معروفاً بذلك.

كتب أحدُ أساتذة جامعة تشرين: دعا رئيس جامعة تشرين عام 1972 م جميع أساتذة الجامعة آنذاك إلى العشاء في منزله بمناسبة مرور عام على تأسيس الجامعة، كان الدكتور البوطي رحمه الله في تلك الفترة عميداً لكلية الشريعة في جامعة دمشق، وكان يأتينا كل يوم أربعاء لتدريس مادة القرآن الكريم في قسم اللغة العربية فكنّا نستضيفه تلك الليلة ليعود إلى دمشق بعد ظهر الخميس.

كنت أعمل آنذاك في تأسيس مكتبة الجامعة، إذ لم تكن هذه المكتبة موجودة قبل ذلك الوقت، وحدث أن زارني رئيس الجامعة في مكتبي وأنا أستضيف الدكتور البوطي عندي، فوجّه إلينا معاً الدعوة لحضور العشاء مساء يوم الخميس. أجبت من فوري بقبول الدعوة شاكراً، ولكن الدكتور البوطي طلب بلطف أن يستأذن والده في دمشق أولاً.

فاستغربت أنا ورئيس الجامعة من أن يطلب أستاذ جامعي كبير جاوز الأربعين تقريباً، وأبناؤه الآن طلاب في الجامعة، وهو عميد لكلية كبيرة ككلية الشريعة، وفي جامعة كبيرة كجامعة دمشق، أن يطلب الإذن من والده لحضور عشاء وتمديد زيارته للاذقية من مساء الخميس إلى صباح الجمعة!

أخفى رئيس الجامعة ملامح الاستغراب من وجهه وتوجّه إليّ قائلاً: اذهب يا بسّام مع الدكتور البوطي إلى مكتبي ليتصل من هاتفي المباشر هناك بوالده في دمشق.

المفاجأة لم تنته بعد، ففي مكتب الرئيس أمسك الدكتور البوطي بالسماعة وسمعت منه وهو يحدث والده على الهاتف العبارات التالية التي أحاول أن أنقلها هنا حرفياً.

– السلام عليكم أبي.

– السيد رئيس الجامعة دعاني مع بقية الأساتذة مساء غد للعشاء في منزله، فهل أستطيع حضور المأدبة وأعود إلى دمشق صباح الجمعة

– شكراً أبي ... السلام عليكم ....

وضع السماعة وقلت له مجاملاً: الحمد لله، هكذا أصبحت الأمور أسهل وتستطيعون الآن البقاء باطمئنان، وكانت المفاجأة الثانية تنتظرني على لسان الشيخ: لا والله، لا أستطيع، أبي ما وافق!

لن تتصور أبداً معالم المفاجأة على وجهي، ولا على وجه رئيس الجامعة حين وصفت له بدقة ما جرى على الهاتف... هل هذا معقول؟!! لا نقاش ولا حوار ولا إلحاح، ولا حتى كلمة رجاء أو محاولة ثني والده عن رأيه!!

يقول الدكتور الجامعي الذي يسرد هذه القصة: الأغرب من هذا أنني حين قدمت أستاذنا الدكتور البوطي قبل سنوات لجمهور الحاضرين في أكاديمية أوكسفورد وهو يستعدّ لإلقاء محاضرته، وسمعني وأنا أقصّ عليهم هذه القصة، نظر إليّ نظرة هادئة، وعيناه تقولان لي: نعم؟ وماذا في هذا؟ أين وجه الغرابة في هذه القصة.

بر الوالدين عز في الدنيا ودرجات في الآخرة، وسعة في الأرزاق وكمال في الأخلاق، فما استطعتم قدموا البر لوالديكم فإن الخير كل الخير في بر الوالدين.

كان محمد بن سيرين عالماً عابداً ورعاً ثقة يصوم يوماً ويفطر يوماً، وكان باراً بأمه قالت أخته حفصة بنت سيرين: كانت والدة محمد يعجبها الصبغ، وكان محمد إذا اشترى لها ثوباً اشترى ألين ما يجد، فإذا كان عيد، صبغ لها ثياباً، وما رأيته رافعاً صوته عليها، كان إذا كلمها كالمصغي إليها.

وقال ابن عون: إن محمداً كان إذا كان عند أمه لو رآه رجل لا يعرفه ظن أن به مرضاً من خفض كلامه عندها.

بر الوالدين عز في الدنيا ودرجات في الآخرة، وسعة في الأرزاق وكمال في الأخلاق، فما استطعتم قدموا البر لوالديكم فإن الخير كل الخير في بر الوالدين

أعرف شاباً مسرفاً على نفسه، ولكنه شديد البر بأمه، فلما ماتت اِلتاعَ لفقدها، فكان يزور قبرها في عصر كل يوم ليقرأ هناك سورة يس ويعود، يطفئ نار شوقه لها وحزنَه على فراقها، لا يخطئه ذلك إلا أن يكون مسافراً أو مريضاً، فكان أن كافأه الله بترك المعاصي والسير على طريق الصالحين وسعة في الرزق عندما ضاقت على العباد أرزاقهم.

بر الوالدين عز في الدنيا ودرجات في الآخرة، وسعة في الأرزاق وكمال في الأخلاق، فما استطعتم قدموا البر لوالديكم فإن الخير كل الخير في بر الوالدين.

أيها الإخوة:

في خاتمة هذه الخطبة، كيف تتحلى ببر الوالدين؟

يعينك على التحلي ببر الوالدين ثلاثة: صحبة البارين، وذكرك ثوابَ البر وعقوبةَ العقوق، وتذكرُك جميلَهما إليك وفضلهما عليك وتعبَهما فيك.

جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، إن أبي أخذ مالي، فقال رسول الله ﷺ للرجل: **«اذهب، فائتني بأبيك»** فنزل جبريل على النبي ﷺ، فقال: إن الله يقرئك السلام، ويقول: إذا جاءك الشيخ، فسله عن شيء قاله في نفسه ما سمعته أذناه»، فلما جاء الشيخ قال له النبي ﷺ: **«ما زال ابنك يشكوك أنك تأخذ ماله؟»** قال: سله يا رسول الله، هل أنفقه إلا على إحدى عماته أو خالاته أو على نفسي؟ فقال النبي ﷺ: **«إيهِ، دعنا من هذا، أخبرني عن شيء قلته في نفسك، ما سمعته أذناك»** قال الشيخ: والله يا رسول الله ما يزال الله يزيدنا بك يقينا، قلت في نفسي شيئاً ما سمعته أذناي قال: **«قل، وأنا أسمع»** قال: قلت:

غذوتك مولوداً ومِنتُكَ يافعاً ... تُعَلُّ بما أجني عليك وتَنْهَلُ

إذا ليلةٌ ضافتْكَ بالسُقم لم أبت ... لسُقمك إلا ساهراً أتململُ

تخاف الردى نفسي عليك وإنها ... لتعلم أنّ الموت وقتٌ مؤجَّلُ

كأني أنا المطروقُ دونك بالذي ... طُرِقْتَ به دوني فعيناي تهمل

فلما بلغت السنَّ والغايةَ التي ... إليها مدى ما فيك كنت أؤمل

جعلت جزائي غلظةً وفظاظةً ... كأنك أنت المنعمُ المتفضل

فليتك إذ لم ترعَ حق أبوتي ... فعلتَ كما الجار المجاور يفعل

قال: فعند ذلك أخذ النبي ﷺ بتلابيب ابنه، وقال: **«أنت ومالك لأبيك»**.

أيها الإخوة:

أكثروا من الصلاة والسلام على سيدنا محمد ﷺ فإنه من صلى عليه صلى عليه ومن سلم عليه سلم عليه، وتدارسوا مع من حولكم حديثه ﷺ وأخلاقه، وسنته وسيرته، ليكون النبي حاضراً فينا وتكون سنته ماثلة بيننا.

﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما﴾

والحمد لله رب العالمين